طفولة الإنسانية

أتحدث إلى حضراتكم عن طفولة الإنسانية ، ولا أعنى بطفولة الإنسانية تلك السن الباكرة التى مررنا بها جميعًا فى مطلع حياتنا ، ولا بأطفال الإنسانية تلك المخلوقات الصغيرة التى نراها كل يوم فى بيوتنا أو حول بيوتنا .

وإنما أعنى تلك الطفولة التى تلازم الإنسان إلى ما بعد الكهولة والشيخوخة ، بل تلازمه حتى يفارق الحياة ، وهى طفولة الروح أو طفولة الأخلاق .

ولكننا لا نستغنى عن الكلام فى طفولة السن حين نتكلم فى طفولة الروح ، لأن الطفولتين تتشابهان فى خصلة واحدة ، وهى أنهما تساقان إلى الخير بجزاء وإغراء ، وتدفعان عن الشر بجزاء وإغراء .

فالطفل سنًّا لا يتناول الدواء الذى يشفيه إلا إذا وعدته باللعبة وقدمت له الحلوى ، ولا يمتنع عن الخطأ الذى يضيره ويسقمه إلا إذا لوحت له بالعصا أو الحرمان .

وكذلك الطفل روحًا وخلقا تقوده إلى الفضيلة بوعد وتذوده عن الرذيلة بوعيد ، ولو كان رجلا فى الروح والخلق لما احتاج

إلى الوعد والوعيد .

طفل السن يلهب الرمد عينيه وتريه القطرة التى تشفيه وتخفف الألم عنه ، فيأباها ويصر على إبائها ، أو تبذل له الهدايا وتمنيه بالفرجة والمكافأة الحسنة .

ولكنه يصبح رجلا فيسعى إلى الطبيب بقدميه إذا رمدت عيناه ، ويبذل ثمن القطرة من ماله عن رضا وارتياح ، ولا يحتاج إلى أمر ولا وعد بجزاء .

وطفل السن تضنيه الحمى وتنهاه عن مفارقة الحجرة فلا يرضى ولا يصيخ إلى النصيحة وهو قادر على مخالفتها ، ولا تزال به حتى تزين له الاعتكاف فى المنزل بالألاعيب التى تبثها من حوله والعلالات التى تعلل بها خياله وتشغل بها فراغ وقته عن التفكير فى اللعب والخروج .

ولكنه يصبح رجلا فيعتكف مختارًا ويغضب على من يفتح النافذة عليه فى حجرته فضلاً عن الخروج من الدار .

فعمل المفيد النافع بجزاء هو الطفولة ، والامتناع عن الضرر الوبيل بجزاء هو الطفولة ، وقد ترى الرجل فى الخمسين أو الستين أو السبعين وهو طفل بهذا المعنى فى الحالتين .

أليس طفلا بهذا المعنى ذلك الرجل الذى لا يفعل الحسن الجميل إلا وهو ينتظر الأجر عليه ؟ ولا ينتهى عن العيب الذميم إلا وهو يخشى ما وراءه من عقاب ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى يطلب المآثر لأرباحها وغنائها ولا يطلبها لذاتها ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى ينتهى عن النقص لأنه مهدد بالعاقبة السيئة ولا ينتهى عنه لأن الكمال خير من النقص ، ولأنه بغيض إليه أن يرضى بأسوأ الحالتين وأبخس الصفقتين ؟

إن الرجل الذى يقال له كن قويًّا لتصرع الأسود وتغلب الجبابرة وتكافح الأمراض ، لا يسألنا : وما جزائى على ذلك ... ؟ فلماذا يسألنا الجزاء إذا قلنا له : كن قويًّا لتصرع الشهوات والمطامع وتنهض بالفروض والعظائم ، وتقدر على المطلب الجسيم الذى يعجز عنه الآخرون ؟

إن الذى يترك الطعام الغث ليأكل الطعام المفيد لا ينتظر الجزاءعلى ما ترك أو على ما اختار ، فلماذا ينتظر الجزاء على اختيار المروءة وترك النذالة ، أو على اختيار الشرف وترك الضعة والخمول ؟

إنه يشترى الحرير بالثمن الغالى ويترك الكرابيس وإن عرضت عليه بالثمن الرخيص ، فلماذا ينتقل إلى سوق المحامد والفضائل فيأخذ الحرير وهو ينتظر المكافأة على أخذه ؟ ويترك الكرابيس وهو ينتظر المكافأة على تركها والأنفة منها ؟ .

إنه لا يفعل ذلك إلا لسبب واحد : وهو أنه طفل الروح والأخلاق ، لا يميز بين الحسن والقبيح ، ولا يعرف النافع

والضار ، ولا يدرى الذى هو أدنى والذى هو خير ، ولو درى ذلك لترك الأدنى لأنه أدنى وكفى ، وفعل الخير لأنه خير وكفى ، وكذلك يفعل الرجال كل يوم ، حين يميزون بين الغالى والرخيص ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الرفيع والوضيع .

إنهم يطلبون الرفيع ويبذلون الثمن العزيز فيه ، ولا يطلبون الرفيع وينتظرون من يكافئهم على أخذه كما يصنع الأطفال : أطفال الروح والأخلاق .

* * *

وهنا يخطر على البال ذكر الثناء .

فيخيل إلى الأكثرين أن المرء مطالب باختيار المآثر لأنها تجلب له الثناء ، ومطالب باتقاء المعائب لأنها تعرضه للندم وسوء المقال .

وفى هذا الخاطر شىء كثير من الصدق والتعبير عن الواقع ، ولكننا إذا اكتفينا به لم يرتفع بنا كثيرًا عن طفولة الروح والأخلاق .

لأن الثناء يأتى من ألسنة الناس ، وألسنة الناس لا تقول الحق فى كل حين ، بل الناس أنفسهم لا يعرفون الحق فى كل حين ، ولا يعرفون على الدوام ما هو جدير بالحمد وما هو خليق بالمذمة والإنكار .

وقد ينعكس الأمر عندهم فيذمون الحميد ، ويحمدون الذميم .

وآية الناصح الأمين أنه يعلم الناس مالا يعلمون ، وأنه يهديهم إلى الخصال التى يغفلون عنها ، ويحذرهم من العيوب والأخطاء التى يقعون فيها ، ولولا ذلك لما كان للناصحين الأمناء من عمل ، ولا كان للنوابغ المتقدمين على أزمانهم من ضرورة ولا منفعة .

فإذا اقتصر الرجل على ما يحمده الناس وما يذمونه لم يتقدم الناس ، ولم يكن لذلك الرجل من فضل عليهم ، ولا من أثر مشكور فى إصلاح شئونهم وتبديل أحوالهم .

وإنما عليه أن يدعو إلى الأفضل الأكمل وإن ذموه . وأن ينهاهم عن الأسوأ الأخس وإن أحبوه ، وليس فى وسعه أن يفعل غير ذلك إن كان حقًا على إيمان وثيق بما يراه ، وشعور عميق بما يدعو إليه .

إن الرجل الذى يستطيب النظر إلى الحدائق والبساتين وينفر من الجلوس إلى المستنقعات والبؤر الموبوءة لا يفعل ذلك لأن الناس يحمدونه أو يذمونه ، ولا لأنهم يرضون عنه أو يسخطون عليه ، فإنه ليحب النظر إلى الحدائق والبساتين وإن ذموه ، ويكره النظر إلى المستنقعات والبؤر وإن شكروه .

كذلك يصنع الرجل الذى يسمو به الذوق ويعلو به الروح حتى يدرك الفارق بين المنظر الجميل والمنظر القبيح ، إنه لينظر هنا أيضًا إلى الحديقة المزهرة وإن لم يغنم ثناء من ألسنة الناس ،

وإنه ليعرض هنا أيضًا عن البؤرة الكريهة وإن ساقته إليها ألسنة الناس ، لأنه يحتمل الأذى فى سبيل المتعة بالجمال ويحتمل الأذى فى سبيل البعد عن القبح والدمامة ، وجزاؤه على ذلك أنه يرى الجمال ولا يرى القبح والدمامة ، وليس جزاؤه ما يقال أو ما لا يقال .

تلك هى رجولة الروح والأخلاق . وأما ما دونها فهو طفولة الإنسانية التى تحتمل الرمد ولا تحتمل القطرة ، والتى تتداوى من الرمد بأجر ووعد ، وتقبل القطرة بأجر ووعد ، ولن تزال كذلك حتى تبلغ مبلغ الرجال .

* * *

إن رجولة الروح والأخلاق هى أرقى ما ترتقى إليه الإنسانية فى معارج الجمال ، وقد قال أبو العلاء :

ولتفعل النفس الجميل لأنه خير وأجمل لا لأجل ثوابه

وهكذا ينبغى أن يفعل كل إنسان تجاوز مرتبة الطفولة إلى مرتبة النضج والكمال .

ينبغى أن يرتفع الإنسان لأن الرفعة جميلة فى عينيه . ولأن الخسة مؤلمة لنفسه ، وكذلك يفعل كل إنسان فى المحسوسات كل يوم وكل ليلة ، فيأكل الشهى لأنه يحب مذاقه ، ويلبس الجميل لأنه يعجب بحسنه ، وينبذ المطعم الكريه لأنه لا يستطعمه ،

ويعرض عن الملبس الزرىّ لأنه يأنف منه ، وليس لسبب غير هذا وذاك .

وإنما ترتقى الأمم والأفراد إلى هذه الدرجة الرفيعة حين ترتقى فى التمييز بين الأخلاق والأذواق كما تميز بين المحسوسات من المأكول والملبوس .

عندئذ يسهل الإصلاح فى الأمة ، ويسهل على المصلح أن يصل منها إلى مواضع الإقناع .

فالأمم فى هذه الخصلة قسمان : أمم الأطفال وأمم الرجال :

أمم الأطفال هى الأمم التى تعودت أن تطلب الجزاء وراء كل نصيحة ، فإذا قام فيها المصلح الأمين شكت فيه ولم تفهم ما يريده إلا إذا وقع فى روعها أنه ينتظر الجزاء فى الدنيا والآخرة ، إما بالثناء وإما بجنات النعيم ، وهى تفهمه إذن على قدر ما تتصور من جزائه وجزائها ، لا على قدر الكمال الذى يدعو إليه ولا على قدر التمييز بين الصواب والخطأ وبين الرجولة والطفولة .

أما الأمم التى ارتفعت فى مراتب الرجولة فهى لا تستريب فى المصلح الأمين لأنها لا تجهل فائدته وجزاءه ، ولا يهمها إلا أن تميز كلامه لتعرف موقع الصواب فيه ، فإذا كان صوابًا اتبعته وإن كان عظيم الكلفة عليها ، وإذا كان خطأ أنكرته وإن كان محببًا إليها وميسورًا لديها . كما يفعل طالب الصحة حين يميز بين

الطبيب الصادق والطبيب الكاذب ، فيصغى إلى الطبيب الصادق وإن أمره بترك اللذيذ من الطعام وشرب الكريه من الدواء ، ويعرض عن الطبيب الكاذب وإن وصف له ما يرضيه وموّه عليه فى حقيقة ما يشكوه .

والعبرة فى كل حال بالتمييز .

فلم نخطئ فى وصف الرجولة بأنها سن التمييز ، لأن الخطوة الأولى فى سبيل الاختيار الصحيح هى تمييز الفاضل من المفضول والراجح من المرجوح ، ثم تأتى الخطوة التالية وهى الأخذ بالراجح وإن صعب الأخذ به ، وترك المرجوح وإن تيسر الحصول عليه .

وكذلك رجولة الإنسانية هى فى الواقع درجة التمييز بين الكمال والنقص مع غض النظر عن المكافأة والعقاب ، فمن ميز الكمال والنقص طلب الكمال وإن خسر فى سبيله ، وترك النقص وإن ربح من ورائه ، ولم يجد غرابة فى هذا وذاك ، ولم يساوره الندم بعد هذا وذاك .

* * *

ما دام الإنسان يريد الخير فهو ينشده ويبذل فيه ثمنه وإن غلا ، وهو إذن رجل الروح والأخلاق .

وما دام الإنسان يراد على الخير فهو لا ينشده إلا إذا عرف

الجزاء عليه ، وهو إذن طفل الروح والأخلاق وإن جاوز السبعين والثمانين .

وخير ما نرجوه لهذه الأمة أن تحمل تكاليف الرجولة بغير نظر إلى جزاء ، فذلك فى النهاية هو أوفى الجزاء .

obeikandl.com